

بقلم العميد الركن المتقاعد ادونيس نعمته

السلطان يلغي الامتيازات ويحتك لبنان لكن صقيع الجبال يقود جنوده إلى مهالك

بدأ عهد الامتيازات الاجنبية بين الدولة العثمانية ومعظم دول أوروبا في زمن السلطان محمد الفاتح، واستشرى امرها في زمن السلطان سليمان القانوني الذي اشتهر بالاكثار من عقد المعاهدات والمواثيق بينه وبين هذه الدول ولاسيما فرنسا في ايام ملكها فرنسوا الاول، وهي المعروفة دوليا باسم قابيتيلاسيون Capitulations، فأعطت رعايا هذه الدول المقيمين في البلاد العثمانية، وبعض الاقليات الوطنية الموجودة في نطاق السلطنة، حقوقا وامتيازات لم يتمتع بمثلها العثمانيون الاقحاح في الميادين التجارية والسياسية والدينية والادبية، بحيث اصبحت السلطنة، في ظل هذه الامتيازات، شبه مستعمرة للشعوب التي نالتها. فتذمر العثمانيون من هذا التسامح الذي ابداه سلاطينهم وحكوماتهم، ومن الدلع الذي كان

يبد من اصحاب الامتيازات، فاخذ رجالاتهم يعملون على هدمها وتقويضها بكل الوسائل في انتظار الظروف المؤاتية لنيل بغيتهم، الى ان برزت لهم باندلاع نار الحرب في الاول من آب 1914 بين ألمانيا والنمسا من جهة، وفرنسا وانكلترا وروسيا من جهة اخرى. وكان دخل في روع بعض الناس ان الدولة العثمانية قد تخوض غمار الحرب على ما كان بها من ضعف وانكسار بعد حرب البلقان، وان تقف الى جانب الالمانيين في وجه انكلترا وفرنسا ذهابا مع نزق الفريق الاعظم من زعماء الاتحاديين. فاستولت المخاوف على اللبنانيين، وانتشر الشائع من كل حدب وصوب عن احتمال دخول الدولة في الحرب والغاء الامتيازات الاجنبية التي يالغائها تفك الصلات التي تربطها بالدول القائمة على حماية نظام لبنان.

بما ان تسلّم والي بيروت هذه البرقية حتى قامت تظاهرات الابتهاج والفرح في شوارع المدينة، وارتفعت معالم الزينة في كل مكان. ولأجل جس نبض اهالي جبل لبنان ارسل الوالي الى متصرف الجبل اوهانس باشا البرقية التالية: "ان اهالي بيروت يحتفلون اليوم احتفالا باهرا لمناسبة الغاء الامتيازات الاجنبية الذي كانت تقوم المصاعب الكثيرة دون بلوغه، فنأمل ان تبلغوا اخواننا اللبنانيين الذين بدائرتكم هذه البشرية لتشاركونا في افراحنا القومية افندم".

ما ان تسلّم اوهانس باشا في مركزه مبتدئين هذه البرقية حتى بادر الى استمراج رأي اعضاء مجلس الادارة الكبير في شأنها. فجمعهم في جلسة طارئة ووزع عليهم اوراقا ومغلفات وطلب من كل منهم أن يبدي رأيه في معزل عن الآخر ويضعه داخل ظرف مختوم ليبعث بالجواب المناسب الى



الفقير سليم باز مع المتصرف اوهانس باشا وزوجته في جنينة قصر بيت الدين، سنة 1914.



داود عمون رئيس اول مجلس نيابي في لبنان.



علي رضا بك البيلاي قائد الالاي 67، اول قائد دخل لبنان.

المراجح الرسمية. فحدثت هذه البادرة لغطا كبيرا بين اعضاء المجلس، فمنهم من اراد الاعتراض على الالغاء في جبل لبنان المتمتع بنظام استقلالي خاص، ومنهم من طلب القيام بتظاهرات احتجاج. غير ان داود عمون، عضو ناحية دير القمر، دعاهم الى الهدوء والتؤدة وكتب جوابا لبقا ووضعه في غلاف وسلمه الى المتصرف، وهذا نصه: "كل ما من شأنه ان يزيد دولتنا العلية قوة ورقيا يفعم قلوبنا فرحا لأننا من عداد رعاياها الامناء المخلصين لها، لنتمتع في ظلها بالقسط الوافر من الراحة والهناء افندم".

قبل دخول تركيا الحرب زار والي بيروت المتصرف وعرج على منزل صديقه داود عمون في دير القمر، وهمس في اذنه كلمة كانت كافية لأن يغادر داود دير القمر بعيله فورا الى مصر. ثم دارت رحى الحرب وصدرت الاحكام المعروفة في حق بعض الوجهاء اللبنانيين الذين فروا من وطنهم الى الخارج اتقاء لشر الاتراك.

اثر انضمام تركيا الى دولتي الوسط في اول تشرين الثاني 1914 احتل الجيش التركي لبنان بقيادة جمال باشا، واعلنت تركيا الغاء معاهدة باريس المعقودة سنة 1856 ومعاهدة برلين المعقودة سنة 1878. وتحقيقا لهدفها القديم اعلنت في الوقت عينه الغاء نظام لبنان جزئيا، وصرفت اوهانس باشا وعيبت مكانه علي منيف، وادخلت لبنان في نظام الولايات.

وتحاشيا منها لاحتلال سفن الحلفاء الشواطئ

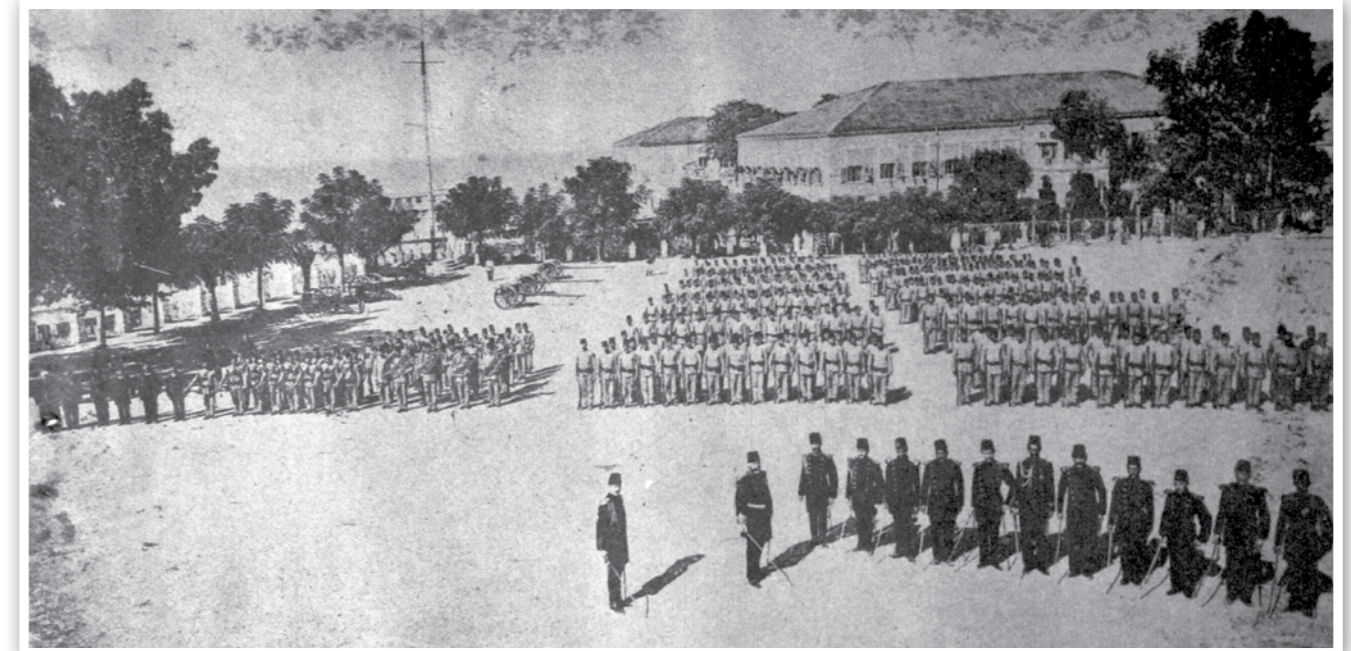
اللبنانية أمرت قيادة فرقة بعلبك العثمانية الالاي 67، بدخول بعض المواقع اللبنانية ابتداء من 14 تشرين الثاني، وانطلاقا من زحلة حتى بكفيا. وفي ذلك اليوم تلقت متصرفية جبل لبنان الامر بضرورة اخلاء منازل ضهور الشوير واعدادها للجنود الذين تقرر اقامتهم في تلك الجهة. ونفذت هذه الاوامر في اليوم نفسه، فغادرت الفرقة المذكورة بعلبك قاصدة زحلة، وكانت مؤلفة من اربعة آلاف جندي (عثمانيين وابناء عرب) يقودهم البناشي علي رضا بك (البيلاي) وهو دمشقي الاصل، ترافقهم بطارية من المدفعية الجبلية ومفرزة من المكارين وقافلة طبية يتولاها الدكتور يعقوب افندي اللبان من طرابلس. وكان قد شخص الى ضهور الشوير الامير امين ابي اللمع قائد درك المتن لابلاغ السكان قرار الحكومة بضرورة اخلاء منازلهم، ففعلوا على الفور ولم يُبقوا فيها غير رياش قليل يكفي الجنود. واطل يوم 15 تشرين الثاني 1914 عاصفا، شديد الامطار والرعود، كثيف الضباب، يصعب فيه على المرء براح منزله. فأقبل فريق من وجهاء زحلة ينصحون القائد بالعدول عن رحلته المقررة، فالطريق بين زحلة والضهور المارة بظهر الحرف فعينطورة فالمتين صعبة المسالك وغير معبدة مما قد يدفع الجنود الى المهالك، فما اصغى رضا بك الى هذه النصيحة، فأشاروا عليه بأن يسلك طريق ضهر البيدر، صوفر، بيروت ومنها يتسلك الى الضهور، لكن القائد رفض هذه النصيحة ايضا

قائلا: "انا جندي، والوامر صريحة تحتم علي الوصول الى ضهور الشوير في هذا المساء".

سار جنود الالاي 67 بانتظام من صوفر، وكانوا لا يزالون يرتدون الملابس الصيفية وينتعلون الاحذية القديمة البالية، مما لا يناسب تلك الطريق الوعرة وفي مثل ذلك الجو الصاخب. وتابح الجنود سيرهم من ضهر الحرف، فدهمهم الضباب، وتساقطت عليهم امطار غزيرة تلتها الثلوج، فتتضعع الجند وبات كل منهم لا يبصر طريقه، فدبت الفوضى في صفوفهم وتشتتوا هناك، وتعالى الصراخ ممن لم يعودوا يبصرون امامهم، وقد سقطوا من ثم في الالوية وقضي عليهم، وكثيرون منهم اقعدهم البرد عن متابعة المسير، فظلوا على قارعة الطريق حتى وافاهم الاجل المحتوم.

واجتاح الجيش المناطق اللبنانية وهو في حالة يرثى لها، وتفرق افراده بين القرى في حالة مؤسفة. ورأى قائده ان يعسكر على مقربة من الشوير (المروج) ريثما يلتئم شمل قواته وقادتها، وكتب الى مدير ناحية الشوير يطلب منه النجدة. وجلس علي رضا بك تحت سنداينة المروج يرتقب اعادة جمع صفوفه. وهذه السنداينة ذات شهرة تاريخية، ففي ظلها استراح منذ نحو قرن وثلث القرن ابراهيم باشا الفاتح المصري يحيط به قادته. على اثر جدال حاد بين المسؤولين المحليين، انصرفت نساء الشوير الى المواقد طوال تلك الليلة لا فرق بين الفقيرة والغنية، وقد اعتزمن استقبال الجنود غير جياح. فأشعلن النيران ونصبن فوقها القدور واخذن في سلق البطاطا والبيض واعداد الخبز، وفي الصباح كان لدى الاهلين 86 بغلا وعجلة تحمل الطعام الى بلدة المروج لتقدم للجنود ما جاد به ابناء المتن ولتنقل مرضاهم الى الشوير.

وصل القائد علي رضا بك الى برمانا وسار توالا الى دار البرق وطير منها برقية الى تحسين بك في عاليه يعلنه ما توقع له في هذه الرحلة الشاقة. وما نسي ان يشكر اللبنانيين على المساعدة التي ابدوها له ولجنوده، وقد طلب ان تُرفع برقية الشكر هذه الى القيادة العليا. وما كاد يخرج من ادارة البرق حتى وجد في انتظاره امامها عددا من وجهاء



تمارين لعسكر السلطان في بيروت قبيل حرب 1914.

حزير، الحجر الاطرش، غيضة الترشيح، فلما بلغوا صلب الجبل في عين حزير بدأ الصقيع يفعل فعله في الجنود. وما وصلوا الى غيضة ترشيح حتى كان عدد الساقطين دنقاً نحو 300، فتبعثر شملهم ولم يصل منهم الا القليل. ولما بلغني الخبر خطر في بالي سلاح هؤلاء الجنود وضرورة جلبه الى زحلة، فطلبت اربعة رجال اشداء ومشيت امامهم من زحلة الى زيتونات دير الطوق، عين الادواح فعين حزير. وصرنا نرى الجثث، فناخذ البواريد وصفوف الخرطوش، وقد جمعنا خمسين بارودة واكثر من الف مشط خرطوش. ولم يكن في مقدورنا نقل هذه الكمية، فصرنا نتعاون عليها من نقطة الى اخرى حتى بلغنا مكانا هادئاً في جهة القطين - وادي العرايش، وهناك وجدنا رجمة حجارة خبأنا السلاح فيها وعجلنا بالعودة الى زحلة.

في الصباح الباكر وصل الخبر الى القائد بفاجعة العسكر، فذهب ورأى الجثث من دون سلاح، فعاد الى زحلة وطلب عشرة مشايخ من اهلها وزجهم في الحبس طالبا منهم السلاح المفقود.



القاضي مخائيل ابوعينين من زحلة، كتب مذكراته في كتاب ضخم من جزئين تحت عنوان "صراع الحزم والظلم".

"نصح الزحليون قائد الجنود علي رضا بالبقاء ريثما يروق الطقس، فلم يقبل، وسار الجيش عند الظهر على طريق عين الادواح، عين

المنطقة الذين رحبوا به ترحيباً فائقاً ودعاهم ابراهيم بك الاسود، الى الغداء عنده. وتمكن الجنود من الوصول الى زهور الشوير في اليوم الخامس والعشرين من تشرين الثاني 1914، وكان قد تفرق اكثرهم في مختلف الجهات في حالة مؤلمة. واجرت القيادة احصاء تبين منه ان الحملة فقدت في هذه الرحلة ما لا تفقده عادة في المعارك الحربية، فالذين ذهب البرد بارواحهم والذين سقطوا في المهاولي والاوادية، بلغوا 327 جندياً، هذا عدا العشرات ممن اضطروا الى ملازمة الفراش مدة طويلة (راجع مجلة "الاسرار"، العدد 9 تاريخ 31 ايار 1938).

وتوجه الجنود الى بكفيا وهم يرتدون الالبسة الممزقة ويحتدون "الشواريح" البالية، وكانوا يهزجون قائلين: "يا سيفي هيا هيا، من زحلة لبكفيا". فانصرف الاهلون الى توفير المؤونة والمسكن لهم، ومن هناك توزعوا على بعض الاماكن اللبنانية.

روى ميخائيل ابوعينين، في كتابه "صراع الحزم والظلم" الصادر في البرازيل، ما يلي، وهو من الذين عاشوا هذه الاحداث واشتركوا في وقائعها: